المجلة التاريخية الجزائرية
ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664
المجلد:08، العدد:03 (2024)، ص169-185

المؤسسات التعليمية في مصر في عهد دولة المماليك البحرية (784-658هـ/1250-1382م)

- منارات علمية وصروح ثقافية وتربوية-

Educational institutions in Egypt during the reign of the first Mamluk state (658-784 Ah-1250-1382 ad) - scientific beacons and cultural and educational monuments-

عبد الرحمان عمرون*
مخبر التمكين الاجتماعي والتنمية المستدامة في البيئة الصحراوية
جامعة الأغواط (الجزائر)
a.amroun@lagh-univ.dz

خالد شارف
مخبر التمكين الاجتماعي والتنمية المستدامة في البيئة الصحراوية
جامعة الأغواط (الجزائر)
k.charef@lagh-univ.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2024/10/16
تاريخ القبول:
2024/12/04

الكلمات المفتاحية:
- ✓ المؤسسات التعليمية
- ✓ عهد الدولة المملوكية الأولى
- ✓ الخنقاوات
- ✓ المساجد

الملخص:

إذا كانت العملية التعليمية حسب علماء التربية والتعليم، تقوم على ثلاث محاور أساسية هي المُعَلِمْ والمُتَعَلِمْ والمِنْهَاجْ التَعْلِيمِي، فإنّه وَلاشَكَّ أن دُورَ العلم والمؤسسات التعليمية جزءا لا يتجزأ من هذه المنظومة التعليمية بل إنَّهُ بدونها تصبح العملية صعبة، ولهذا أدركت دولة المماليك البحرية-الأولى- أهمية هذه المنشآت التعليمية فعملت على إنشائها مُرَاعِيةً التَدَرُجْ السِّنِي والمراحل التعليمية المختلفة، فالصبيان دون الخامسة عشر يدرسون في الكتاتيب، ثم ينتقلون في مرحلة أخرى إلى حلقات العلم في المساجد، فإذا أراد الطالب الاستزادة من مختلف العلوم يتوجه إلى المدارس ذات التخصص والتنوع العلمي، فهناك مدارس فقهية حسب المذاهب الأربعة ومدارس للحديث النبوي الشريف ومدارس تحتوي على مجالس اللغة والنحو والإقراء وغيرها، كما توجد مؤسسات علمية لا تقل أهمية عن ما سبق كالبيمارستانات الملحقة بها مدارس لتعلم العلوم الطبية وكذلك الزوايا والأربطة والخوانق التي تشترك في كونها مأوى لطبقة العُبَّاد والزهاد والصوفية، لكنها حافلة بمجالس العلم والذكر، وسنحاول في مقالنا هذا إماطة اللثام عن هذه الصروح العلمية ودورها في تخريج النخب العلمية والمثقفة في المجتمع.

Abstract:

If, according to educationalists, the educational process is based on three basic axes, namely the teacher, the learner and the educational curriculum, then there is no doubt that the role of Science and educational institutions is an integral part of this educational system, but without them the process becomes difficult, which is why the maritime Mamluk state realized-the first- The importance of these educational facilities, so I worked to establish them taking into account the Sunni gradient and the different educational stages. boys under fifteen study in the manuals, and then at another stage they move to the science seminars in mosques. if a student wants to learn more from various sciences, he goes to schools with specialization and scientific diversity. there are fiqhi schools according to the four madhhabs, schools of Hadith, schools containing councils of language, grammar, reading, etc. there are also scientific institutions no less important than the above, such as and the gorges that share the common of being a shelter for the class of worshipers and ascetics In this article, we will try to uncover these scientific edifices and their role in graduating the scientific and educated elites in society.

Article info

Received:
16/10/2024
Accepted:
04/12/2024

Key words:
- ✓ The educational institutions
- ✓ The era of the first Mamluk state
- ✓ The Stranglers
- ✓ mosques

*المؤلف المرسل

مقدمة

عرفت مصر المؤسسات التعليمية والمراكز العلمية منذ بداية الفتح الإسلامي سنة (23هـ/642م)، حيث بَنَى الفاتحون الأوّلُون بقيادة عمرو بن العاص أوَّل جامعٍ في فُسْطَاطِ مِصْرَ عُرِفَ باسمه جامعُ عَمْرُو بن العاص أو الجامع العتيق، لعب دورا كبيرا في تعليم الناس أمور دينهم وتعاليم الإسلام وكذا تَعَلُّمِ اللغة العربية، وخلال القرنين الثاني والثالث الهِجْريين عرف عودة تلامذة مالك بن أنس، عبد الرحمان بن القاسم، وعبد الله بن وهب، وأشهب بن عبدالعزيز من المدينة المنورة فأدخلوا مذهبه إلى مصر، وساروا أعلامه، رحل إليهم الناس من كل حدب وصوب للتفقه على أيديهم لاسِيَّما المغاربة وأهلُ الأندلس، تَزَامَنَ ذلك مع دُخُولِ محمد بن إدريس الشافعي تلميذ مالك بن أنس بمذهب جديد يختلف عن مذهب أستاذه، التف حوله المصريون وطلبة العلم من مختلف البِلاد فتزاحما المذهبان في مصر جنبا إلى جنب.

ومع منتصف القرن الرابع الهجري ودخول الفاطميين أرض مصر (361هـ/971م) بنوا جامع الأزهر الذي يعتبر بمثابة جامعة في عصرنا الحديث لِتَعَلُّمِ أصول المذهب الإسماعيلي وتعاليم الدعوة الفاطمية، ثم جاء من بعدهم الأيوبيين (567-648هـ/1171-1250م) وكمحاولة منهم للقضاء على بقايا المذهب الشيعي المخالف لعقيدة أهل السنة والجماعة عمدوا على بناء المدارس والكتاتيب وإنشاء المكتبات وشجعوا الناس على التَّعلم وأوقفوا أوقافا لتمويلها.

ثم جاء خلفهم من المماليك (648-923هـ/1250-1517م)، التي عَرَفَتْ المؤسسات التعليمية في عهدهم انتشارا كبيرا خاصة الدولة الأولى للمماليك والتي تعرف بالمماليك البحرية (648-784هـ/1250-1382م)، فبنوا المدارس وفق المذاهب السُّنِيَةِ الأربعة، وأوقفوا الرُبُطَ والخَوَانِقَ والزوَايَا على الفُقَرَاءِ والمَعْدُومِينَ ومن انقطعت بهم السُبُلُ، فَتَشَجَّعَ أَهْلُ الصَلاَحِ من العلماء والخَيِّرِينَ من أهل التجارة والأموال في الانخراط في مسعى الدولة في تشجيع العلم فأوقفوا المدارس والمراكز العلمية من أجل تخريج نخبة مثقفة علمية ستكون عماد الأمَّة والقائد لقطار نَهْضَتِهَا ولا أدَّل على ذلك أنْ تَحَوَلَتْ مصر لقبلة لِمَنْ يطلبون بِضَاعَةَ العلم من المشرق الإسلامي ومغربه، خَاصَةً مع تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية في دُوَلِ هَاذَانِ القطران، فسادت مصر في كل العالم الإسلامي وتَغَلَّبَتْ على أعدائها من المَغُولِ والصَلِيبِيّينَ.

وقد أردنا من خلال هذا الموضوع الإجابة على الإشكالية المتمثلة في السؤال التالي: **ماهي أهم المؤسسات التعليمية في عصر دولة المماليك البحرية؟ وماهي العلوم التي كانت تُدَّرس بها؟**

وفي هذا المقال واعتمادا على ما توفَّر لنا من المصادر المملوكية على وجه التحديد، عملنا على تَتَبُّع هذه المؤسسات انطلاقا من أصغر مؤسسة يدرس بها الطالب وهي الكتاتيب، إلى البيمارستانات وهي بمثابة كليات الطب عندنا، التي كانت مكانا للعلاج وتعلُّم فنون الطب وصناعة الدواء.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

1. دولة المماليك الأولى –البحرية–

بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة (579هـ/1193م)، انقسمت الدولة الأيوبية، واقتطع كل أمير مِصْرًا من الأَمْصَارِ يَحْكُمُهُ، فهذا أمير حلب، والآخر الكرك والثالث مصر ودمشق وبعلبك وحماة، وَتَلَقَبُوا بألقاب الملوك، وأدَّى النزاع بين هذه الأسرة الأيوبية إلى قيام حروب وتحالفات فيما بينها، وفي هذه الفوضى التي عمَّت مِصْرَ وبلاد الشام تحديدا حَرَصَ كل حَاكِمٍ على تكوين عُصْبَةٍ تكون تبعًا له، يعتمد عليها للاحتفاظ بإمارته، فَعَمِدُوا على الإكْثَارِ من شراء المماليك– العبيد البيض– وقاموا بتدريبهم وتنشأتهم، على مراسيم الخدمة والطاعة والولاء.

يُعْتَبَرُ السلطان الصَالِحْ نجم الدِّين أيوب حكم بين سنة (637-647هـ/1240-1249م)، هو صاحب السَّبْقِ في تكوين فرقة جديدة من المماليك قُدِّرَ لها أنْ تنهض بدور خطير في التاريخ، هي فرقة المماليك البحرية، وفي ذلك يقول ابن أيبك (ابن ايبك، الدودار، 1960، ص 300، ج7)، عن الصالح نجم الدين أيوب: "**أنه اشترى المماليك الترك ما لم يشتري أحد من المماليك من قبله، حتى عاد أكثر جيشه مماليك...**".

أمَّا عن سبب التسمية بالبحرية فالْمُرَجَّحْ في ذلك، يرجع إلى اختيار الصالح نجم الدين أيوب، جزيرة الروضة (صفي الدين ابن عبد الحق، 1992، ص333، مج1)، في بحر النيل مركزا لهم، ومعظم هؤلاء المماليك الأتراك مجلوبين من بلاد القفجاق– شمالي البحر الأسود– ومن بلاد القوقاز قرب نهر قزوين، وهو ما جعل فريق يذهب الى أنَّ التسمية بالْبَحْرِيَة، لأنهم جاءوا من وراء البحر، وامتاز المماليك البحرية بالشجاعة والقوة والبأس، وفي أواخر حكم الأيوبيين، استأثروا بالحكم، ودامت دولتهم قرابة قرن وثلث من(648-784هـ /1250-1381م)، واستطاعوا مواجهة العوائق الداخلية والخارجية في دولتهم، من صليبيين، ومغول، وداخلية في صورة المؤامرات، وابتدأت دولتهم بالسلطان المُعِز أَيْبَكْ التُرْكُمَانِي حكم بين سنة (651-648هـ/1250-1254م)، مرورا بالسُلْطَان قُطُز حكم بين سنة (657-658هـ/1258-1260م)، ثم الظَاهِرْ بيبرس حكم بين سنة (658-676هـ/1260-1277م)، نهاية بأسرة قَلاَوُونْ التي امتد حكمها إلى قرن تقريبا (678-784هـ/1279-1382م).

2. المؤسسات التعليمية في مصر

عرفت مصر المملوكية مؤسسات تعليمية مختلفة ومتنوعة، تختلف باختلاف الفترة العمرية للمتعلم، فنجد أن المرحلة الأولى في التعليم تكون في الكتاتيب التي يتعلم فيها الطالب رسوم الخط والكتابة وحفظ القرآن الكريم وبعض العلوم البسيطة إلى أن يبلغ سن الخامسة عشر، فيلتحق بحلق العلم في المساجد أين يجد ضالته من مختلف العلوم كعلوم الشريعة مثل الفقه والحديث والتفسير والقرَاءات، فاذا اتمّ الطالب هذه الدراسات يجيزه أستاذه في علم من العلوم أو كتاب من كتب الشيخ، فإذا اراد أن يستزيد من معارف أخرى يلتحق بالمدارس المختصة سواء في الفقه على المذاهب الأربعة حيث أن لكل فقه مدارس خاصة به أو يلتحق بمدارس الحديث وإذا أراد أن يدرس الطب هناك المدارس الطبية التي تكون عادة ملحقة بالبيمارستانات، كما توجد مؤسسات تعليمية لا تقل أهمية عما سبق وتلعب دورا تعليميا مهمًّا هي التي يمكن أن نصطلح عليها بمؤسسات الصوفية المتمثلة في

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الأربطة والخوانق والزوايا والتُّرَبْ وكلها تشترك في قاسم واحد أن الطالب يدخل في عزلة عن محيطه الخارجي وينقطع عن الناس ويتفرغ للعبادة والزهد والتنسُّك مع تعلُّمه علوما شرعية كالفقه والحديث وغيرها وسنعرِّج في مقالنا هذا عن هاته المؤسسات التعليمية على النحو التالي:

1.2. الكُتَّابْ

جاء في لسان العرب لابن منظور (ابن منظور، 1955م، ص 193، ج 2)، "**الكُتّابْ**" أو "**المَكْتَبْ**"، بأنّه موضع لتعليم الكتَابْ، فهو المكان المخصص لتعليم القراءة والكتابة ومنه أُشتق الاسم.

أصبح الكُتّابْ من أهم الدور العلمية وأوسعها انتشارا في دولة الإسلام، خاصة بعد الفتوحات الإسلامية، ودخول أجناس وشعوب جديدة لدين الله أفواجا، وقيام مختلف المصالح الإدارية للدولة الإسلامية التي تحتاج الى الكَتَبَة والمتعلمين مما دفع الناس إلى تعليم أولادهم، القراءة والكتابة، سعيا وراء الوظيفة والمكانة الاجتماعية.

في عهد دولة المماليك البحرية، شَكَّل الْكُتَّاب المرحلة التعليمية الأولى فأصبحت دروسه تشمل إلى جانب تحفيظ القرآن، دروسا في اللغة والأدب والحساب (ابن مسكوية، د.ت، ص 65).

وفي بداياتها كانت الكتاتيب عبارة عن غرفة في منزل المعلم يستقبل فيه طلابه (شلبي أحمد، 1978، ص 46)، وأخذت تنتقل في عماراتها، حتى أصبحت في العهد المملوكي جزءا من وحدة أكبر، تحتوي إضافة للكُتَّاب، مدرسة أو خانقاه، أو مسجدًا، والتعليم في الكتُّاب من مسؤولية المعلم (مراد يحيى، 2003، ص 13)، أو المؤدب (ابن حزم الأندلسي، 2007، ص 72، ج2)، الذي يجب أن يكون صحيح العقيدة، متزوجًا، حَسَن السُلوك، طيّب السمعة من أهل العفة والأمانة، قادرًا على ضبط الأولاد بالحسنى، غير متشدد ويراعي حاجة الولد إلى الراحة واللعب بعد انتهاء الدرس (ابن مسكوية، د.ت، ص 65).

أمّا فيما يخص الطُّلاب، فنجد أن الكتاتيب قد خُصِصَتْ للأولاد والبنات (ابن الحاج، 1995، ص 463، ج2)، الذين أتَمُّوا خَمْسُ سنوات (ابن حزم الأندلسي، 2007، ص 65، ج 2)، حتى سن الخامسة عشر (ابن الجوزي، 1986، ص 17). وقد وُضِعَتْ للكَتَاتيب الشروط والقواعد التي تضمن انتظام الدراسة فيها وتُرَاقِبْ عمل المُؤَدِبين، وتُحَدِدْ مُدّة الغياب، كما تحدد شروط القبول والانتساب، وهناك أنواع من الكتاتيب تختلف باختلاف الذي أوقفها والشروط التي وضعها في ذلك ومنها:

1.1.2. الكتاتيب الخاصة

يقوم هذا النوع من الكتاتيب في بيوت المُدرِّسين، حيث خَصَصُوا حجرة في منازلهم لاستقبال الأولاد وتعليمهم الخط والكتابة واللغة، بالإضافة لتحفيظ القرآن، وعادة تستهدف أبناء الطبقة الغنية الذين يدفعون المال مقابل تعليم أولادهم (شتيلا، د.ت، ص 44).

2.1.2. الكتاتيب العامة

هذا النوع من الكتاتيب يقيمها السلاطين والأمراء وغيرهم، لِيتَعَلم فيها يتامى المسلمين، والفقراء المُعْدَمين، القرآن الكريم والحديث النبوي، وتعاليم الإسلام، على أن يتركوها عندما يستطيعون العمل والكسب، وقد وَفَّرَ هذا

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

النوع من الكتاتيب التعليم والرعاية الاجتماعية لأبناء الأسر الفقيرة بحيث ينال أولادها نفس تعليم أولاد الطبقة الميسورة، وغالبا هذا النوع من الكتاتيب يكون مُلْحَقًا بالمسجد أو المدرسة وغيرها (حطيط، 2003، ص 222).

3.1.2.كتاتيب القصور

كتاتيب داخل قصور السلاطين والأمراء من أجل إ عداد أولادهم وتنشأتهم على تحمُّلِ مسؤولياتهم لخلافة العهد، فيقومون بجلب العلماء والمؤدبون القادرين على تربية الأمراء الصغار وتعليمهم وفق برنامج علمي، يشترك في وضعه الأولياء مع العلماء من أجل الإعداد الجَيِّد لخلفاء المستقبل، وقد انتشر هذا النوع من التعليم في قصور الفاطميين، ومن بعدهم الأيوبيين، وصولا إلى المماليك، الذين استقبلوا في قصورهم المؤدِّبِين لأولادهم ومَمَالِيكهم الصغار، فنجد مثلاً أنَّ الأمير أرغون الدوادار ربيب السلطان قلاوون ومملوكه تأدَّب مع ابنه السلطان محمد (ابن حجر العسقلاني، د.ت، ص 350، ج 1)، والأمير سيف الدين كوندك الساقي تربّى مع السلطان السَّعيد بَرَكة ابن بيبرس وتعلَّم معه في الكُتَّاب (العريني، د.ت، ص95).

2.2. المساجد

لعبت المساجد دورا كبير في نشر العلم والثقافة الإسلامية، فبالإضافة إلى الدور التعبدي الذي يلعبه، كانت المساجد قبلة المتعلمين من المسلمين لأمور دينهم ودنياهم منذ بداية الدعوة الإسلامية، وأول صرح تعليمي بناه الرسول ﷺ هو المسجد، الذي كان نقطة لقاء بين المسلمين ورسول ﷺ يعلّمهم أمور الوحي والشريعة الإسلامية، فَعُقِدت فيه المجالس وحلقات العلم في كل أقطار العالم الإسلامي.

ولم تشذ مصر عن مثيلاتها من دول العالم الإسلامي، فكانت مساجدها منارة للعلم والعلماء، جلس في ثناياها طلبة العلم لينهلوا من معين الشريعة الغراء في مختلف تخصصات العلم الشرعي من فقه وحديث وتفسير وقراءات وعلم اللغة والنحو وغيرها، بل تعدَّاهُ الى علوم الطب والمنطق وعلم الميقات وغيرها من علوم الدنيا، ومن أكبر وأشهر المساجد التي كانت محط أفئدة طلبة العلم والعلماء سواء للتَّعَلُّمِ أو التَعْلِيم نجد جامع الأزهر وجامع عمرو بن العاص بالفسطاط، وجامع ابن طولون، وجامع الحاكم.

كان النظام التعليمي السائد في المساجد، نظام مفتوح لمن أراد التعلم، فيجلس في حلقة الشيخ الذي يريد، تبعا لمستواه العقلي والعلمي، وعند الانتهاء من سماع كتاب أو حلقة عند الشيوخ، كان الشيخ يُجِيزُهُ فيعطيه إجازة بما سمع عنه، وإذا ما اكتفى الطالب من الشيوخ، وأراد الاستزادة كانت مكتبات ملحقة بهاته الجوامع، تحتوي كتبا في مختلف العلوم والفنون والمعارف (ابن خلكان، د.ت، ص 55، ج1)، ومن أشهر مساجد مصر نجد:

1.2.2. الجامع العتيق

أول مسجد أسِّسَ في فُسْطَاطِ مصر، بناه بعد الفتح عمرو بن العاص سنة (23هـ/642م) (السيوطي، 1997، ص 213، ج 2) في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويقال له جامع عمرو بن العاص، يصف لنا الرحالة ناصر خسروا عندما زاره سنة (439هـ/1047م) بقوله: "**وفي المسجد حلقات درس دائمة وقراء**

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

كثيرون، وذلك المسجد من معالم مصر البارزة، ولا يوجد أقل من خمسة آلاف شخص في المسجد في أي وقت من أوقات الليل والنهار، فساحات المسجد لا تخلوا من طلاب العلم والغرباء" (ناصر خسرو، 1983، ص 106)، ويذهب المقدسي (ت 380هـ/990م) في نفس الاتجاه، حين يقول: "**أَنَّ عدد المصلين فيه يوم الجمعة نحو عشرة آلاف**" (المقدسي، 2003، ص 166) .

وفي عصر الدولة المملوكية تحديدا سنة (749هـ/1348م)، بلغ عدد حلقات العلم فيه بضع وأربعين حلقة (المقريزي، 1992، ص 22، ج4) على درجة عالية من العلم، وكانت تُدَرَسُ فيه مختلف العلوم، فبالإضافة الى علوم الشرع نجد الفلسفة، والكيمياء، والفلك، والطب، والهندسة وغيرها (حوري، 2007، ص 117).

كما كانت هناك زاوية في جنباته مخصصة للنساء – زاوية السيدة نفيسة بنت الحسين –، عُيِنَتْ لها فاطمة بنت عفان بن عثمان البغدادي لتعليم النساء وتفقيههن (حوري، 2007، ص 117)، وكان هذا الجامع محل عناية من سلاطين الدولة المملوكية وعلى رأسهم الطاهر بيبرس والسلطان قلاوون (السيوطي، 1997، ص 221، ج 2).

2.2.2. جامع الأزهر

يرجع بناؤه الى القائد جوهر الصقلي قائد جيوش المعزُّ لدين الله الفاطمي، عندما اختط القاهرة، حيث شرع في بنائه في شهر جمادى الأولى سنة (359هـ/976م) (السيوطي، 1997، ص 221، ج2)، وأول خطبة جمعة كانت سنة (361هـ/971م) (النويري، 2004، ص 87، ج 30)، ثم أصبح جامعة وملتقى طلاب العلم، تُدَرَسُ فيه العلوم الدينية والدعوة الفاطمية (المقريزي، 1998، ص 162)، والفقه الإسماعيلي، ومن بين الذين تناوبوا على التدريس فيه قاضي الدعوة الفاطمية القاضي علي بن النعمان سنة (365هـ/976م)، ليملي مختصر في الفقه الشيعي يعرف بالاقتصار (المقريزي، 1998، ص 162).

وفي العهد الأيوبي لعب نفس الدور فكان محطَّ العلماء الوافدين إلى مصر، وذلك بدعم وتشجيع من هذه الدولة للقضاء نهائيا على رواسب الدولة الفاطمية ومذهبها الشيعي المُعَارِضِ تماما لمذهب أهل السنة والجماعة، وسار المماليك في عهد دولتهم الأولى على خطى أسلافهم الأيوبيين وأصبح جامع الأزهر منارة علمية كبيرة، وجامعة تضاهي جامعات العالم الإسلامي، فكان يُدَّرس فيه الفقه على المذاهب الأربعة ولكل مذهب رواق وإيوان خاص به (السيوطي، 1997، ص 222، ج2)، ومن بين العلماء البارزين الذين درسوا في هذا الجامع نجد المؤرخ شمس الدين ابن خلكان (ت 681هـ/1282م)، والحافظ ابن حجر العسقلاني (ت 852هـ/1448م)، وتقي الدين المقريزي (ت845هـ/1441م)، وأحمد بن علي القلقشندي (ت821هـ/1418م) (حوري، 2007، ص118)، المقري (1041هـ/ 1632م)، وابن خلدون (ت 808 هـ/1406م) الذي يحكي عن بداية دخوله لقاهرة المعز حين توافد عليه طلبة العلم، جلست للتدريس بالجامع الأزهر (ابن خلدون، د.ت، ص 201).

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

3.2.2.جامع أحمد بن طولون

يعود بناؤه الى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون في القطائع (ابن تغرى بردي، 1992 ص 15، ج3)، على جبل شيكر سنة (236هـ/877م) وانتهى منه سنة (265هـ/879م)، كان مركزا لدراسة الحديث الشريف وصرحا علميا جمع بين علوم الدين والدنيا كالفقه والحديث والطب (السيوطي، 1997، ص219).

وفي عهد السلطان لاجين سنة (696هـ/1296م) كلَّف الأمير علم الدين سنجر الدواداري (700هـ/1300م) بشراء الأوقاف وحبسها على الجامع، وترميمه وتعين درس لتفسير القرءان، وآخر للحديث إضافة إلى دروس الفقه على المذاهب الأربعة، ودرس في القراءات وغيرها من العلوم الشرعية، وجعل بجوارها مكتبا لتعليم وتحفيظ القرءان الكريم (النويري، 2004، ص 203، ج10).

2.2. 4. جامع الحاكم

أسسه العزيز بالله الفاطمي ثم أكمله الحاكم بأمر الله، وتمت عمارته سنة (393هـ/1003م) (النويري، 2004، ص 111، ج28) وكان يعرف بجامع الخطبة لأن صلاح الدين نقل إليه خطبة الجمعة من الجامع الأزهر و يعرف أيضا بالجامع الأنور (السيوطي، 1997، ص 253، ج 3)، جدده في العهد المملوكي الأمير بيبرس الجاشنكير، إثر زلزال سنة (702هـ/1302م)، وكان يدرس فيه الفقه على المذاهب الأربعة ودرسا في الحديث ودرسا في النحو وآخر في القراءات (السيوطي، 1997، ص 222، ج 2)، وممن درَّسوا الفقه الشافعي نجد القاضي بدر الدين ابن جماعة (733 هـ/1332م)، وعلى قبَّة من درَّس الفقه الحنفي قاضي القضاة شمس الدين السروجي (772هـ/1370م)، أما من القضاة الذين درَّسوا في هذا الجامع الفقه المالكي نجد القاضي على ابن مخلوف (803هـ/1400م)، وعلى رأس من درس الفقه الحنبلي قاضي قضاة الحنابلة شرف الدين الحراني (652هـ/1254م)، وممن درسوا النحو في هذا المسجد نجد عَلَمُ اللغة ومجددها الشيخ أثير الدين أبا حيان الغرناطي (745هـ/ 1344) (الجزائري، د.ت، ص 44)، كما كان في هذا الجامع عدة متصدرين لتلقين القرآن الكريم وعدة قراء يتناوبون القراءة، وفيه خزانة مهمة لنفائس الكتب المختلفة في شتى فنون العلم وبجانبه مكتبا لتعليم أيتام المسلمين القرآن الكريم (المقريزي، 1998، ص 60، ج 4).

3.2. المدارس

المدرسة في اللغة عند ابن منظور عَرَّفها على النحو التالي: المَدَارِسُ والْمُدَرِّسُ هو الموضع الذي يُدْرَسُ فيه، والمَدْرَسُ الكِتَابُ، المُدَرِّسُ هو الذي يقرأ الكتب ويدرسها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام الآية 105)، بمعنى تَعَلَّمْتَ وعَلِمْتَ أو قرأت.

والمدرسة اسم مأخوذ من الآرمية أو العبرية، يشير الى مؤسسة التعليم التي تبنى بشكل هندسي خاص يتيح للمُدَرِّسِ والطلبة السكن فيها (شتيلا، د.ت، ص 47).

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

يرى بعض المؤرخين كالمقريزي (ت 845 هـ/1441م)، والسيوطي (ت911 هـ/1550م)، والحافظ الذهبي (748 هـ/1346م)، أنَّ الانطلاقة الأولى للمدرسة كمؤسسة تعليمية كانت في النصف الأول من القرن (5هـ/11م)، حين أقيمت بعض المدارس في نيسابور (عاشور، د.ت، ص 232)، أمَّا قبل ذلك فكانت في بيوتات العلماء وفي قصور الخلفاء الذين كانوا يُلْحِقُونَ بقصورهم دورًا ومكتبات خاصة تعطى فيها الدروس الدينية والعلمية وغير ذلك.

عرفت مصر في العهد الأيوبي نهضة في تأسيس المدارس، خاصة في عهد الناصر صلاح الدين الذي افتتح سنة (566هـ/1171م)، أول مدرسة في القاهرة حملت اسمه الناصرية، وجعلها للفقهاء الشافعية (ابن دقماق، د.ت، ص 93،ج 4)، ثم بنى في نفس السنة المدرسة القمحية وخصصها للفقهاء المالكية (القلقشندي، د.ت، ص 390)، ثم المدرسة السيوفية (ابن دقماق، د.ت، ص 230، ج 1)، بدار الوزير الفاطمي نجم الدين بن مصال (السيوطي، 1997، ص 224، ج2)، وفي القرافة بنى المدرسة الناصرية الصلاحية بجوار الإمام الشافعي (المقريزي، 1998، ص 259، ج4)، ومدرسة أخرى بجوار المشهد الحسيني (السيوطي، 1997، ص 224، ج2)، ثم توالى لناء المدارس في عهد خلفه الذين استكثروا من المدارس.

وسار المماليك على نهج أسلافهم الأيوبيين الذين أكثرو من بناء المدارس ودور العلم مثل: الربط، الخوانق، الزوايا، المساجد وغيرها، خاصة في كبرى حواضر مصر كالقاهرة والإسكندرية والصعيد ووصل الأمر حتى إلى وجود أكثر من مدرستين لا يبتعدان عن بعضهما كثيرا في إحدى أحياء القاهرة كما هو الحال مع المدرسة الزمامية (المقريزي،1998، ص 249، ج4)، والمدرسة الصاحبية (ابن دقماق، د.ت، ص 95، ج 4)، اللتان تلاصقتا تلاصقا كبيرا، وقد وصف ابن بطوطة (ت 776هـ/ 1374م) كثرة المدارس التي شاهدها في رحلته التي قام ها في القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي بقوله: " **...وأما المدارس بمصر فلا يحيط بها احد لكثرتها** ..." (ابن بطوطة، د.ت، ص37)، وهو ما عبر عليه القلقشندي (ت 821هـ / 1418 م) بقوله "**من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها**" (القلقشندي، د.ت، ص 346، ج3)، ومن أهم المدارس في العهد المملوكي نجد:

1.3.2. المدرسة الناصرية

بناها صلاح الدين الأيوبي، لمَّا كان وزيرا للخليفة العاضد (566هـ/1171م) (المقريزي، 1998، ص 200، ج 4)، بجوار جامع عمرو بن العاص، استمرت مزدهرة الى ما بعد سنة (855هـ/1433م)، قال ابن جبير (ت 614هـ/1295م): "**...لم يعمر بهذه البلاد مثلها، لا أوسع مساحة، ولا أحفل بناءا، يُخَيل لمن يطوف عليها، أنها بلد مستقل بذاته...**" (ابن جبير، 1937، ص 16).

2.3.2. المدرسة الطيبرسية

أسسها الأمير علاء الدين طيبرس سنة (709هـ/1309م)، بجوار الجامع الأزهر من جهة البحرية، وأوقف في بدايتها تدريس الفقه الشافعي (ابن حجر العسقلاني، د.ت، ص 229، ج3) وفي سنة

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

(710هـ/1310م)، نقل إليها جماعة من الصوفية (ابن تغري بردي، 1992، ص 199، ج9)، ومِمَّن درس في هذه المدرسة أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت852هـ/1448م) (مغربي محمود، 1978، ص 34).

3.3.2. المدرسة الصرغمتشية

بناها الأمير سيف الدين صرغمتش بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل، وقفها على المذهب الحنفي والحديث النبوي الشريف، وصفها المقريزي (845هـ / 1441 م) بأنها: "... **من أبدع المباني وأجلها وأحسنها قالبا وأجلها منظرا** " (المقريزي،1998، ص 227، ج4).

4.3.2. المدرسة المنصورية

من المدارس الفقهية المهمة في مدينة القاهرة أنشأها السلطان المنصور قلاوون الألفي (ت689هـ/1290م)، وكانت في الأصل قلعة ست الملك ابنة العزيز بالله نزار الفاطمي، وأطلق السلطان المنصور قلاوون في هذه المدرسة دروسا في الفقه غلى المذاهب الأربعة، كما جعل فيها درسا للحديث النبوي الشريف، وآخر لتفسير القرءان الكريم، ودرسًا للأقراء، إضافة إلى درس في الوعظ، وقد قام على هذه الدروس كبار الفقهاء (المقريزي،1998، ص268، ج4).

4.2. المكتبات في مصر في عهد الدولة المملوكية الأولى

إن المتتبع لكرونولوجيا ظهور المكتبات في العالم الاسلامي نجده بدأ مع حركة الترجمة إلى اللغة العربية لمختلف العلوم اليونانية والرومانية وذلك يرجع بالأساس إلى تشجيع الخلفاء المسلمين ومحبتهم للعلم، وبذل أموال كثيرة للمترجمين ونقلة العلوم إلى العربية لاسيما خلفاء بني العباس في عصر دولتهم الأولى، ساعد ذلك على انتشار الكتب وأصبحت بضاعة الكتاب بضاعة رائجة لتوفر النُسّاخ وانتشار الورق ومصانعه وأسواقه (حطيط، 2003، ص 224)، فترجمت كتب الطب والفلسفة والهندسة والكيمياء (ابن القطفي، دت، ص 24)، جعلت المكتبات الخاصة والعامة تنتشر في عالمنا الإسلامي.

أما مصر، فقد عرفت المكتبات قبل العصر المملوكي حيث انتشرت زمن الفاطميين بهدف نشر دعوتهم وعقيدتهم وبسط نفوذهم السياسي على كامل المشرق الإسلامي التي كانت مصر حاضرته (المقريزي، 1998، ص 34 – 35، ج2)، فانتشرت المكتبات في القصور والمساجد، وفي زمن الأيوبيين أبطل صلاح الدين (ت 594هـ/1193م) المذهب الشيعي وقضى على مكتباتهم وكتبهم التي تعارض المذهب السُّني للأيوبيين (رمضاني، 2010، ص 22)، وفي زمن المماليك اشتهر عندهم حب العلم ومجالسة العلماء فألحقوا كثيرا من المكتبات بالمساجد والمدارس، وكنماذج على أهم المكتبات في العصر المملوكي نجد:

1.4.2. المكتبة المحمودية

كانت هذه المكتبة تابعة للمدرسة المحمودية التي أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن علي الأستادار سنة (797هـ/1396م)، ويذكر المقريزي انه لم يكن في مصر ولا في بلاد الشام مثلها لأنها كانت عامرة بالكتب والمخطوطات والمؤلفات الإسلامية والعلمية المهمة التي جمعها البرهان ابن جماعة (733هـ/1333م) قبل أن

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

يشتريها الأمير محمود ويوقفها على مدرسته المحمودية، وقد بلغت أربعة آلاف مجلد مفهرسة (السخاوي، 2003، ص 128، ج5)، لكبار العلماء والأدباء والمؤلفين المسلمين، وكان لها نظام إعارة خاصة من طرف خازنها عثمان فخر الدين البكري، مكَّنَهُ من المحافظة على محتوياتها ملتزما شروط وافقها الأمير محمود أن لا تعار كتبها إلى خارجها إطلاقا أيًا كان الطالب (السخاوي، 2003، ص 128، ج5)، إلا إذا كان طالب بالمدرسة المحمودية نفسها ولمدة محددة (المقريزي، 1998، ص 251، ج 4).

2.4.2. مكتبة القلعة

كان مقرها داخل قلعة الجبل عامرة بالكتب، حُمِلَتْ إليها الكتب سنة (626هـ/1229م) من مكتبة القاضي الفاضل، وكانت عُدَّتها ثمانية وستين ألف مجلد، حملها تسعة وخمسون جملا عل ثلاث دفعات (المقريزي، 1998، ص 355)، ضَمَتْ مصنفات في الفقه والحديث واللغة والتاريخ والسير والمغازي ومختلف العلوم، واحترقت يوم الجمعة الرابع من صفر سنة (691هـ/1292م)، ممَّا تعرض أكثر كتبها للتلف أمَّا الباقي فقد ضاع بين أيادي الناس (ابن تغري بردي، 1992، ص 32، ج 8).

3.4.2. مكتبة القبة المنصورية

كانت من عمائر الدولة المملوكية، وقد احتوت على عدة أحمال من الكتب المهمة في مختلف العلوم كالتفسير واللغة والفقه والحديث والطب، إضافة إلى الختمات الشريفة والربعات (النويري، 2004، ص 73، ج 31).

4.4.2. المكتبات الخاصة

كانت منتشرة كثيرا في العصر المملوكي الأول، وكان أصحابها في الغالب يشجعون الناس على القراءة من خلال إعارتهم لكتب مكتباتهم، وهي صفة امتاز بها علماء الدولة المملوكية ومن أشهر هذه المكتبات:

1.4.4.2. مكتبة شافع بن علي بن عباس الكناني العسقلاني

المولود في القاهرة سنة (649هـ/1251م)، كان في حياته يعمل في ديوان الإنشاء إلى أن أصيب بالعمى فلازم بيته لجمع الكتب حتى امتلك ثمانية عشرة خزانة مملوءة من نفائس الكتب، وكان يتعرف على الكتاب من خلال لمسه ويعرف متى اشتراه وما كان ثمنه (ابن شاكر الكتبي، د.ت، ص 93، ج 1).

2.4.4.2. مكتبة الحسين بن علي الطيبي (ت743هت/1342م)

كان مدرسا للعلوم الشرعية، امتلك مكتبة خاصة به وكان محبا لطلبة العلم وكان يعير لهم كتبه لمن أرادها، ويبذلها لهم سواءً لأهل بلده وغيرها من البلدان (الشوكاني، 2007، ص 156، ج 1).

3.4.4.2. مكتبة الإمام نور الدين بن علي بن جابر

في القاهرة الذي وجد في خزانة كتبه يوم وفاته (725هـ/1325م)، ستة آلاف مجلد وكتاب، كما نشطت في العصر المملوكي الأول نوع آخر من المكتبات كانت بمثابة دار النشر، بحيث توظف نُسَّاخًا ينسخون الكتب، ثم يبيعونها ومن أشهرها مكتبة افرانيم بن الزَّفَان الطبيب، كان له نُسَّاخًا ينسخون الكتب الطبِّية ويبيعها

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

لأهل صنعة الطب (ابن أبي أصيبعة، 1998، ص 524)، ومكتبة ناصر بن علي بن خلف الذي كان يبيع الكتب في داره كل يوم أحد وأربعاء (ابن شاكر الكتبي، د.ت، ص184، ج 4)، ومكتبة بن أ بي الربيع (السخاوي، 2003، ص 189، ج 3).

5.2. الأربطة والزوايا والخوانق والترب في مصر المملوكية

الأربطة والزوايا والخوانق، هي معاهد دينية، أ نشأت لإيواء المنقطعين للعلم، والزُّهاد والعُباد، وأصل كلمة الرباط والزاوية عربيتان، فالرِّباط مكان إقامة الحامية عند ثغور العدو (ابن سيده، 1996، ص 108، ج2)، كما أن الزاوية في الأصل الركن والمكان عامة (ابراهيم مصطفى، دت، ص 408).

لقيت الأربطة والزوايا والخوانق اهتماما كبيرا وتوسعا في البناء منذ عهد صلاح الدين الأيوبي، ويرجع ذلك الى تزايد الاهتمام بالتصنيف وانتشاره (الحارثي، 1999، ص 394)، والذي بلغ ذروته زمن المماليك.

1.5.2. الترب

كما كانت عمارة أخرى تسمى التربة، ويقصد بها المقبرة التي يدفن فيها عامة الناس ثم أصبحت مرتبطة بالبناء الذي يقام على قبور الأكابر والأعيان والعلماء وهو في العادة قُبَّة كبيرة بداخلها ضريح ولها أوقاف ومرافق متعددة (ابن العماد، 1998، ص 436)، وكما يذكر الباحث خالد علال أن الهدف منها تخليد الذكر وطلب الأجر، لأنَّ أوقافها ومرافقها تعتبر صدقة جارية، وفي كثير منها مساجد، ومكتبات وحلقة للعلم (خالد علال، 2003، ص 273)، ومكاتب لتعليم الأطفال.

2.5.2. الخوانق

أما الخوانق أو "**الخوانك**"، عرَّفها المقريزي (توفي 845 هـ/1441م) بأنَّها كلمة فارسية الأصل معناها الموضع الذي يأكل فيه الملك، ويضيف بأنَّها حدثت في الإسلام في حدود الأربعمئة من الهجرة وجُعِلَتْ لِتَخلِّي الصوفية فيها لعبادة الله (المقريزي، 1998، ص 280، ج4).

والخوانق عبارة عن أماكن خاصة تقام للعبادة والتَّنَسُكِ في نواح يسودها الهدوء والسكينة، يمارس فيه طقوسهم الروحية وشعائرهم الدينية ويقرأون القرآن والأوراد فهي تشبه الأربطة (سورديل، 2009، ص 441) والزوايا، في أهدافها وطبيعتها، إلاَّ أنَّها أكبر حجما، ومن أهم الخوانق في مصر نجد:

1.2.5.2. الخانقاه الصَلاَحِيَة

دار سعيد السعداء، أول خانقاه أقيمت في مصر، تقع بخط رحبة باب العيد مقابل دار الوزارة في القاهرة، أقامها السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة (569هـ/1173م) (السيوطي، 1997، ص 226، ج4)، ويرجع تسميتها بدار سعيد السعداء الى مالكها الأول في العهد الأموي الأستاذ "**قنبر**" أحد الأساتذة المحنكين (المقريزي، 1998، ص 251، ج4)، في الدولة الفاطمية وكان هذا لقبه سعيد السعداء، وقد وَقَفَهَا صلاح الدين للفقراء، والمُعْدَمِينْ الآتين من البلاد البعيدة وكانوا يعيشون فيها منقطعين كلِّيًا عن الخارج في تعبُّدٍ

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وتنسُّكٍ، وقد تولى مشيختها أكابر العلماء كقاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز وعلاء الدين القينوي وغيرهم.

2.2.5.2. خانقاه ركن الدين بيبرس الجاشنكير

بناها المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري (المقريزي، 1998، ص 285، ج 4)، قبل أن يلي السلطنة سنة (707هـ/ 1307) (ابن تغري بردي، 1992، ص 226، ج3)، وبنى بجانبها رباط كبير يتوصَّلُ إليه من داخلها، كما جعل بجانبها قُبَّةً بها قَبْرُهُ، وجعل بها أربعمئة صوفي، ومئة من الجند ومن المعدومين في الرباط (المقريزي، 1998، ص285، ج 4)، وألحق بها مطبخا يقدِّم لكل مقيم بها و بالرباط الطعام واللحم والخبز والحلوى يوميا، ورتَّب لها وقفا كبيرا شمل عِدَّة ضياع من دمشق وحماة والجيزة وغيرها (المقريزي، 1998، ص 286، ج 4)، كما عيَّن فيها درسا للحديث النبوي يقوم به مُدرِّس وعدَّة محدِّثُون وعَيَّنَ قراء يتناوبون القراءة فيها ليلا ونهارا (المقريزي، 1998، ص 285، ج4).

3.2.5.2. خانقاه شيخو

تقع خارج القاهرة عمَّرها الأمير سيف الدين شيخو سنة (757هـ/1356م)، عيّن فيها دروسا في فقه المذاهب الأربعة والحديث النبوي، وإقراء القرءان بالروايات السبع، ومجلسا لإسماع الصحيحين وجعل لكل درسا مدرّسا وعدد من الطلاب، وشرط عليهم حضور الدروس، وحضرات التصوف، واشترط على شيخها أن يكون عارفا بالأصول والتفسير حنفي المذهب (السيوطي، 1997، ص 231 – 230، ج 2).

3.5.2. الزوايا

أما فيما يخص الزوايا كمراكز علمية لتدريس القرآن ومختلف العلوم الشرعية، فهي عادة ما تكون ملحقة بالجوامع الكبيرة، مثل جامع عمرو بن العاص بالفسطاط، الذي كان يضم عددًا من الزوايا والتي كانت محل عناية الأمراء والسلاطين المماليك (السيوطي، 1997، ص 243، ج 2)، وقد درس فيها فقهاء وعلماء كبار. ونظرًا لأن تدريس هؤلاء الشيوخ والعلماء كان يتم أحيانًا خارج المساجد في أماكن مستقلة ليحتموا بها، فقد اصطلح الناس على إطلاق لفظ "**زاوية**" على هذه الأماكن، وبمرور الوقت، أصبحت هذه الزوايا تأوي أهل التصوف المنقطعين للعبادة والعلم والزهد، إلى جانب مهمتها الأولى في التعليم (المقريزي، 1997، ص 182، ج 1)، وعند دخول ابن بطوطة (ت 776هـ / 1374م) مصر وطوافه بجوانبها ومساجدها ومؤسساتها التعليمية، تعرف على العديد من زوايا الصوفية ووضع وصفًا لها في كتابه (ابن بطوطة، د. ت، ص 38)، ومن أشهر هذه الزوايا نجد:

1.3.5.2. زاوية الحلاوي

تقع بالقرب من الجامع الأزهر، بناها الشيخ علي المبارك الهندي الحلوي سنة (688هـ/1289م). درس وأقام بها إلى أن توفي، ومن بعده تولى التدريس فيها ابن الشيخ جمال الدين عبد الله الذي حدث فيها إلى أن مات وخلفه ولده (السخاوي، 2003، ص 35، ج5).

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

2.3.5.2. الزاوية الطراطرية

يعود تاريخ بنائها إلى عهد الناصر محمد بن قلاوون، حيث بناها للأخوين الشيخين محمد وأحمد المعروفين بالطراطرية سنة (740هـ/1339م). وكانت ملحقة بالجامع الأزهر، وفقًا للمقريزي (المقريزي، 1998، ص 310، ج 4).

3.3.5.2. زاوية المغاربة

كانت ملحقة بالجامع الأزهر في القاهرة، حيث يحتوي على عدة زوايا ملحقة به، وكانت هذه الزاوية مخصصة للطلبة المغاربة الوافدين إلى مصر، حيث درسوا فيها الفقه المالكي. من أبرز من درَّس بها الشيخ الفقيه زين الدين قاسم بن محمد بن إبراهيم المغربي، الذي استمر في التدريس بها حتى سنة (799 هـ/1396 م) (ابن قاضي شهبة، 1994، ص 638، ج 3).

4.3.5.2. زاوية عبد الله الجبرتي (ت 780هـ/1378م)

توجد بالقرافة (ابن العماد، 1985، ص 460، ج5)، حيث درَّس بها أحد شيوخ المالكية، شمس الدين أبو ياسين محمد بن عمار بن محمد، المعروف بابن عمار، الذي توفي سنة (844 هـ/1440م)، الذي تتلمذ على يد مؤسسها الجبرتي وتعلم على يده القرآن وبعض كتب الفقه، ثم ولي مشيخة الصوفية بها، وجعل من الزاوية مسكنا له (السخاوي، 2003، ص 232-234، ج8).

5.3.5.2. زاوية الأبناسي

يرجع تأسيسها إلى الشيخ الفقيه برهان الدين ابراهيم ابن حسين ابن موسى ابن أيوب الأبناسي الشافعي (ت 802هـ/1400م)، الذين كان من كبراء الفقهاء ودرس بالجامع الأزهر، كما تولى مشيخة الخانقاه الصلاحية (المقريزي، 1998، ص 314، ج 4).

4.5.2. الربط

أما الربط فبدايتها كانت على ثغور ديار الاسلام، مرتبطة بالجهاد في سبيل الله وملازمة ثغور أعداء الدين فكانت حاميات تحمي أرواح المسلمين (جابر الجزائري، د.ت، ص 48)، ثم تغير مفهوم الرباط من الجهاد في سبيل الله إلى ما يشبه مفهوم الزاوية أو الخانقاه الذي يأوي إليها المتصوفة للإقامة والطعام والتفرغ لعبادة الله والتعليم والذكر (المقريزي،1997، ص 184، ج 1). ومن أهم الربط في مصر نجد:

1.4.5.2.رباط البغدادية

يقع هذا الرباط داخل الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس، بنته ابنة الظاهر بيبرز السّتْ تذكر باي خاتون سنة (864هـ/1285م) للشيخة الصالحة زينب ابنة أبي البركات المعروفة ببنت البغدادية، وكان هذا الرباط مخصصا للنساء على رأسه شيخة تعض النساء وتفقههن في الدين، وقد ذكر المقريزي أنه أدرك في هذا الرباط الشيخة الصالحية فاطمة بنت عباس البغدادية (ت 714هـ/1314م) (المقريزي، 1998، ص 303، ج 4).

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

2.4.5.2. رباط الآثار

ويعرف برباط الصاحبي التاجي، بدأ في عمارته الصاحب تاج الدين بالقرب من بركة الحبش، وأكمله وورده الصاحب ناصر الدين محمد (السيوطي، 1997، ص 235، ج2)، وأما تسميته برباط الآثار فيرجع إلى وجود قطعة حديدية وخشب يقال إنها من أثر الرسول ﷺ، وقد رتب السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون في هذا الرباط درسا في الفقه الشافعي وعين له الشيخ برهان الدين الأبناسي مدرسا لمجموعة من الطلبة، كما ألحق به مكتبة أصبحت محجّ طلاب العلم والمعرفة (ابن دقماق، د.ت، ص 102–103، ج 4).

3.4.5.2. الرباط العلائي

يعود تأسيسه إلى الملك علاء الدين أبو الحسن علي بن الملك سيف الدين ابن الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وعين للفقهاء يوما في الأسبوع في هذا الرباط (المقريزي، 1998، ص 305، ج4).

6.2. البيمارستانات

جمع بيمارستان وهي كلمة فارسية وتعني دار المرضى واختصرت فأصبحت تطلق بلفظ مارستان وكانت بمثابة مستشفيات تعليمية ومدارس لتعليم الطب (ابن اصبعة، 1998، ص 187) بالإضافة لدورها الأساسي كمكان للاستشفاء، وقد حرص سلاطين المماليك على بنائها وتزويدها بالطاقم الطبي والأدوية المختلفة وألحقوا بها مكتبات تحتوي على كتب طبية (عاشور 1985، ص 93) ومن حفلت به المصادر المملوكية عن أهم البيمارستانات في دولة المماليك البحرية نجد:

1.6.2. البيمارستان الطولولني

وترجع نشأته إلى الأمير أحمد بن طولون (259هـ/871م) (ابن تغرى بردي، 1972، ص 101، ج4) جعل عليه أوقافا كبيرة ومكتبة طبية زاخرة بمختلف الكتب المتخصصة في الطب.

2.6.2. البيمارستان المنصوري

يعتبر هذا البيمارستان من أكبر البيمارستانات والمدارس الطبية في مصر، أنشأه السلطان قلاوون الألفي الصالحي (689هـ/1290م) (المقريزي، السلوك، 1997، ص 122، ج 2) وأوقف عليه أوقافا كثيرة وجعل به خزانة كتب ومكانا يجلس فيه رئيس الأطباء لتدريس الطب (ابن تغرى بردي، 1972، ص 326 – 327، ج 7)، وكان يشبه في هيكله الإداري، الهيكل الإداري للمستشفيات في عصرنا هذا حيث يحتوي على طاقم إداري وضيفته ضبط مصاريف البيمارستانات وما يحتاجه من الأدوية، وعمال الصيانة يسهرون على صيانته ونظافته، وقاعات للمرضى يوزعون فيها حسب نوع المرض المصابين به، وقاعة خاصة بالنساء، وبه مطبخ وصيدلية لصناعة الأدوية المختلفة والأشربة (المقريزي، 1998، ص 270، ج2) وقد وصفه الكثير من المؤرخين والجغرافيين والرحالة، حيث قال عنه الكتبي (764هـ/ 1362م) : "**المارستان العظيم الذي لم يكن مثله**" (الكتبي، 1998، ص270، ج2)، وقال عنه الرحالة ابن بطوطة (776هـ/1374م): "**وأما المارستان ...، فيعجز الواصف**

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

عن محاسنه و قد أعد فيه من المرافق و الأدوية ما لا يحصر ذكره، يذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم" (ابن بطوطة، 1996، ص 56).

خاتمة

تعتبر الدولة المملوكية من أبرز الدول التي اهتمت بتطوير النظام التعليمي وبناء المؤسسات التعليمية المختلفة والمتنوعة، انعكس ذلك على محيطها الداخلي والخارجي ونلمس ذلك فيما يلي:

إقبال الكثير من المتعلمين سواءً من الفقراء وغيرهم من مختلف الطبقات الاجتماعية على هذه المؤسسات، ساهم في انتشار العلم وانخفاض نسبة الأمية والجهل لدى سَاكِنة الدولة المملوكية.

أصبح للمرأة دورٌ بارزٌ في الحركة التعليمية من خلال إقبال النساء على التَّعَلم وطلب العلم، وَوُجود نساء مُدَرِّسات لهنَّ، كما ذكرنا في بحثنا أن في مسجد عمرو بن العاص زاوية مخصصة للنساء، عُيِّنَتْ لها فاطمة بنت عفان بن عثمان البغدادي لتعليم النساء وتفقيههنَّ، والأمر نفسه في رِباط البغدادية للشيخة زينب ابنة أبي البركات المعروفة ببنت البغدادية، وكان هذا الرباطُ مُخَصَصًا للنساء فقط على رأسه شيخة تَعِظُ النساء وتُفَقِهُهُنَّ في الدين.

شهدت دولة المماليك البحرية نهضة عمرانية وحضارية كبيرة، نتيجة لهذا الاستقرار الداخلي الذي انعكس على المستوى الخارجي، مَكَّنَ لِدولة المماليك للتصدِّي لجميع الحملات الخارجية، لاسِيَّما حملات الصَّليبين والمغول. أصبحت مصر في العهد المملوكي محجَّ طلبة العلم من مشرق العالم الإسلامي إلى مغربه، وذلك لجودة التعليم وكثرة المؤسسات التعليمية، وتشجيع سلاطين الدولة على نشر العلم من خلال مَنْحِ الرواتب والأعطيات والطعام وإلحاق سكنات الطلبة بالمدارس والزوايا والأربطة.

قام سلاطين الدولة المملوكية باستقطاب النُخب العلمية والعلماء الذين أضافوا للمشهد العلمي ونذكر على سبيل المثال شيخ النحو والعربية في زمانه العلاَّمة أثير الدين أبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت745هـ/1361م)، والمحدِّث أبي بكر الشاطبي (ت662هـ/1264م) الذي تولى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة، وابن خلدون (ت808هـ/1405م) الذي حُظِي باستقبال كبير من طرف الأمراء والسلاطين، وجعلوا له مجلسًا للتَّدريس في جامع الأزهر، وغيرهم كثير ممَّا لا يسعنا المجال لذكرهم.

الاهتمام بالتعليم لم يكن محصورا في مصر، بل امتد ليشمل جميع بلاد الشام، حيث ازدهرت المؤسسات التعليمية التي كانت على نفس النهج الموجود في مصر، لاسيَّما في كبرى الحواضر كدمشق، وحلب، وصفد، والقدس، والخليل وغيرها. من خلال ما سبق نجد أن النظام التعليمي المملوكي أصبح نموذجا حضاريا متكاملا على مستوى العالم الإسلامي، حيث أصبح مرجعا لتطوير الأنظمة التعليمية في العصور القادمة.

قائمة المصادر والمراجع

أ. **المصادر**

- **القرآن الكريم**

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أحمد ابن القاسم (ت 668هـ / 1269 م): **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ضبطه وصححه محمد الباسل عيون السود، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- ابن الجوزي، عبد الرحمان جمال الدين (ت 592هـ / 1195 م): **الحث على حفظ العلم**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1406هـ/1986م.
- ابن الحاج، محمد بن محمد العبدري (ت 737 هـ / 1336م): **المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات**، ضبطه وصححه توفيق حمدان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995 م.
- ابن العماد، شهاب الدين عبد الحي ابن أحمد (ت 1089 هـ / 1678 م): **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ج6، ج7، تحقيق مصطفى عبد القادر عطاء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998.
- ابن القفطي، جمال الدين ابن علي (ت 646هـ/1248م): **أخبار العلماء بأخبار الحكماء**، دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،[د ت].
- ابن أيبك الدواداري: **كنز الدرر وجامع الغرر**. تحقيق: هانس روبرت رومر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1960، ج 7
- ابن بطوطة، شمس الدين محمد ابن ابراهيم (ت 779هـ / 1377 م): **رحلة ابن بطوطة**، دار صادر، بيروت،] د. ت].
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت، ط 1، دار الكتب العلمية، 1992.
- ابن جبير، محمد ابن أحمد، (ت 614هـ / 1217م): **رحلة ابن جبير**، بغداد، المكتبة العربية، 1937م.
- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد ابن علي (ت 852هـ / 1448 م): **الدرر الكاملة في أعيان المئة الثامنة**، دار الجيل، بيروت،[د ت].
- ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد (ت 456 هـ / 1064م): **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تحقيق احسان عباس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 1428 هـ/2007 م.
- ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد (ت 808هـ/1405م): **رحلة ابن خلدون**، علق على حواشيها محمد ابن تاويت الطنجي، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت،[د ت].
- ابن خلكان، شمس الدين أحمد ابن محمد (ت 681هـ / 1282م): **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت،[د ت].
- ابن دقماق، صارم الدين ابراهيم ابن محمد (ت 809هـ/1406م): **الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها**، تحقيق لجنة التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت،[د ت].
- ابن سيده: **المخصص**، تحقيق خليل ابراهيم، دار احياء التراث العربي، بيروت، 1996، ج 2.
- ابن شاكر الكتبي (ت 764هـ/1362م): **فوات الوفيات والذيل عليها**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة،[د ت].
- ابن مسكوية، أحمد ابن محمد بن يعقوب (ت 421هـ / 1031م): **تهذيب الأخلاق**، مكتبة الحياة، بيروت،[د ت].
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (711هـ / 1311م): **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، 1955.
- أبو معين الدين ناصر خسرو الحكيم القباديانى المروزي، **سفر نامه**، تحقيق د. يحيى الخشاب: دار الكتاب الجديد، بيروت، 1983.
- اتعاظ الحنفاء بذكر الفاطميين الخلفاء، القاهرة، 1999.
- البغدادي، صفي الدين ابن عبد الحق، **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، تحقيق وتعليق محمد علي البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992.
- السخاوي، شمس الدين محمد ابن أحمد (ت 748هـ/1347م): **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، ضبطه وصححه عبد اللطيف عبد الرحمان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمان ابن محمد (ت 911هـ/1505م): **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
- الشوكاني، محمد ابن علي (ت 1250هـ/1834م): **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، جمعه محمد بن محمد بن يحيى اليمني الصنعاني، داء الكتب العلمية، بيروت، 2007.
- القلقشندي، أحمد ابن علي (821هـ/1418م): **صبح الأعشى في صناعة الانشاء**، دار الكتب العلمية، بيروت،[د ت].
- المقدسي، محمد ابن أحمد (ت 380هـ/990م): **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003 م.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ / 1441م): **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.
- النويري، شهاب الدين أحمد ابن عبد الوهاب (ت 733هـ/1332م): **نهاية الأرب في فنون الأدب**، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

ب. المراجع:

- الجزائري، أبو بكر جابر: **العلم والعلماء**، دار الكتب السلفية، القاهرة،] د ت **[**.
- حطيط، أحمد: **قضايا من تاريخ المماليك السياسي والحضاري**، دار الفرات، بيروت، 2003.
- حوري، حسين: **المسجد ورسالته في الإسلام**، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.
- سورديل، دومينيك: **معجم التاريخ الإسلامي**، تأليف جورج ودومينيك سورديل، ترجمة أنطوان الحكيم، الدار اللبنانية للنشر الجامعي، بيروت 2009.
- شلبي أحمد: **موسوعة النظم والحضارة الإسلامية، التربية الإسلامية، نظمه، فلسفتها، تاريخها**، ط7، مكتبة النهضة، القاهرة 1978.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح: **العصر المماليكي في مصر والشام**، دار النهضة العربية، القاهرة،] د ت **[**.
- عدنان محمد فايز الحارثي: عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين الأيوبي، مكتبة زهراء الشرف، القاهرة، 1999.
- العريني، السيد الباز: المماليك، دار النهضة العربية، بيروت،] د ت **[**.
- ليلى سليم شتيلا: **نظام التعليم في القاهرة المملوكية**، القاهرة،] د ت **[**.
- مردا يحيى حسن: **آداب العالم والمتعلم عند المفكرين المسلمين**، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
- مغربي محمود: **مدارس القاهرة في العصر المملوكي الأول**، بيروت، 1978م.

ج. الرسائل الجامعية:

- خالد كبير علال: **الحركة العلمية الحنبلية وأثرها في المشرق الإسلامي**، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي، إشراف: أ.د عبد الحميد حاجيات، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2003 م.
- رمضاني فوزي: **دور المالكية في الحياة الفكرية في مصر خلال العصر الأيوبي**، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف: د. بحاز إبراهيم، قسم التاريخ والجغرافيا، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، 2009 / 2010.
- رمضاني فوزي: **إسهامات المالكية في الحياة العلمية في مصر والشام خلال العصر المملوكي (648- 923هـ/ 1250- 1517م)**، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الوسيط، إشراف: د. بحاز إبراهيم، قسم التاريخ، جامعة بوزريعة الجزائر، 2016 / 2017.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)